الشاهد النحوي وأثره في تفسير المحرر الوجيز
لابن عطية الأندلسي

أ. عبد القادر بن ستالة
جامعة الجزائر2

ملخص المقال

يتناول هذا المقال الشواهد النحوية وعلاقتها بتفسير القرآن الكريم، وبيان معانيه، وقد أبرزنا أهمّ الشواهد النحوية التي استعان بها الإمام والمفسّر عبد الحق بن عطية الأندلسي في تفسيره المحرر الوجيز.

وقد بدأنا هذا المقال بمقدمة، بيّنا فيها أهمية الدراسات القرآنية، والتفسير اللغوي للقرآن الكريم، ثمّ لعرض المقال فبدأنا بالجانب النظري، بتعريف الشاهد النحوي، نشأته، وتطوره، مع ذكر مصادر الاستشهاد اللغوي، ثمّ انتقلنا لتعريف التفسير، ومصادره وأقسامه، مركّزين على التفسير بالرأي ومكانة النحو منه. وعلى التفكير النحوي وعلاقته بالقرآن الكريم. ومجهودات النحاة في خدمة الكتاب العزيز.

أمّا الجانب التطبيقي، فقدمنا من خلاله أمثلة وشواهد على النواحي اللغوية والنحوية في تفسير المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي، فمن هذه الشواهد ما تعلقّ بالجملة الاسمية ،كالمبتدأ والخير، ومنها ما تعلق بالجملة الفعلية، كالفعل اللازم والمتعدي، ومنها ما تعلق بالأسماء المنصوبة كالمفعول به ، وقد ختمنا المقال بإبراز ثمار هذه الدراسة، وأهمية النحو في تفسير القرآن الكريم ، وأهمّ الجوانب اللغوية التي تميّز بها تفسير المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي.

الكلمات المفتاحية:

الشاهد النحوي – تفسير المحرر الوجيز – عبد الحق بن عطية الأندلسي – التفكير النحوي – تفسير القرآن الكريم.

Résumé

Cet article traite des indices grammaticaux et leur relation avec l'herméneutique du Coran, et d'expliciter ses sens, comme on a montré les principaux indices grammaticaux dont l'Imam et l'heurméneute Abdul Haq Ben Attia Andalousie s'est servis dans son livre d'herméneutique « El moharar el wadjise » (précis d'interprétation).

On a débuté cet article par une introduction, dans laquelle on a montré l'importance des études Coraniques, et de l'herméneutique (langagière) linguistique du Coran.

Pour exposer cet article, on a commencé par le côté théorique en définissant l'indice grammatical, son existence (ses origines), son développement tout en citant les sources des indices linguistiques, ensuite on s'est orienté à la définition de l'herméneutique, ses sources et ses classes, visant l'herméneutique par l'opinion et l'estime de la grammaire vis-à-vis d'elle. Et aussi du raisonnement grammatical et sa relation avec le Coran. De plus, des efforts des grammairiens au service du Coran.

Pour le côté pratique, par son intermédiaire, on a présenté des exemples et des côtés linguistiques et grammaticaux dans l'herméneutique d'« El moharar el wadjise » de Ben Attia Andalousie, parmi ces indices ce qui est en relation avec la phrase nominale, comme sujet et attribut du sujet, ceux qui correspondent à la phrase verbale, comme le verbe transitif et intransitif, et ceux des groupes nominaux compléments.

Pour conclure cet article on a montré les résultats de cette étude, et l'importance de la grammaire dans l'herméneutique du Coran, et les

principaux côtés linguistiques (de la langue) dont il s'est distingué « El moharar el wadjise » de Ben Attia Andalousie.

Les mots clés : Les indices – grammaticaux – l'herméneutique du Coran – El moharar el wadjise – Ben Attia Andalousie.

مقدمة:

إن أشرف العلوم قاطبة، و أزكى الصناعات كلّها،التي يفني فيها المرء عمره، ما كان متعلقا بكتاب الله عز وجل، فحري أن تنفق فيه الأوقات، و تصرف فيه الجهود والطاقات، كيف لا وهو كتاب هداية البشرية:﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾، ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ**﴾، كتاب نزل بالحق: ﴿**وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ**﴾، اشتمل على كل ما يهم الإنسان في معاشه ومعاده : ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾.

وهو الآية الباقية والمعجزة الخالدة لمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي قال في وصفه – وأحسن الوصف – كما روي عن علي رضي الله عنه: "عليكم بكتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، و حكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، و الذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، و لا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، و من حكم به عدل، و من خاصم به أفلح ، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم".

ولقد اهتم به المسلمون بالحفظ والكتابة والفهم والاستنباط والدراسة والتفسير، وظهرت الدراسات القرآنية المختلفة لخدمة كتاب الله عز وجل، بل إن معظم الدراسات العلمية، خاصة اللغوية منها، مثل اللغة والنحو والصرف والبلاغة، قامت في أولها من أجل القرآن، لفهمه وبيان إعجازه، وتفسير آياته، واستخراج أحكامه... وألفت في ذلك كتب ومصنفات ودراسات.

وقد بذل المفسرون ما لديهم لخدمة كلام الله وكشف معانيه، وكان القرن السادس الهجري من أخصب القرون من حيث الدراسات القرآنية، وظهر في نصفه الأول أربعة من كبار المفسرين : اثنان من المشرق هما: الزمخشري والبغوي، واثنان من المغرب هما: ابن عطية و ابن العربي، ولكل مفسر منهم منهج خاص في تفسير كتاب الله عز وجل.

ولقد اخترت في بحثي تفسير الإمام القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المسمى: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" والغوص في أعماقه لاستخراج الآراء النحوية

وشواهدها التي ناقشها الإمام ابن عطية، خاصة أن تفسيره كان جامعا للكثير من العلوم، ومبرزا لأهمية علوم اللغة في فهم معانيه.

الشاهد النحوي بين النشأة والتطور: نشأت اللغة العربية في أحضان الجزيرة العربية خالصة نقية، لا يعتريها لحن أو خطأ، فالعربي صاحب لغة يصرفها كيف يشاء، غير أن ذلك الصفاء لم يدم طويلا، وكانت الحاجة ملحة إلى دراسات لغوية للحفاظ على سلامة اللسان العربي من اللحن، خاصة مع خشية المسلمين أن يصل ذلك إلى القرآن الكريم. ومن هذا كانت بداية الدراسات اللغوية والنحوية التي كانت دراسات منظمة و دقيقة، تتحرى السلامة والصواب والصحة، وتقوم على قواعد علمية و تاريخية محددة ، تعتمد على ما توفر من شواهد نحوية و لغوية مع تحليل تراكيبها وظواهرها اللغوية.

تعريف الشاهد، نشأته، ومراحل تطوره

الشاهد اللغوي:

أ- الشاهد في اللغة: في لسان العرب: شَهِدَ : من أسماء الله عز وجل الشهيد، و قيل الشهيد الذي لا يغيب عن علمه شيء. و الشهيد: الحاضر. و رجل شاهد، وكذلك الأنثى و الجمع أشهاد وشهود. واستشهده : سأله الشهادة. والشاهد والشهيد الحاضر والجمع شهداء ، و شهّدٌ و أشهادٌ و شُهُود. وقوله عزّ وجل: ﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا** ﴾ الفتح 08. أي: على أمتك بالإبلاغ و الرسالة، وقيل: مُبيناً[1] والذي يجمع بين هذه التعريفات هو كون الشاهد أثر دال على وجود شيء، أو حدوثه.

ب- الشاهد في الاصطلاح : هو قول عربي سواء كان شعرا أو نثرا يؤتى به للاستدلال على رأي أو قاعدة لغوية معينة. يقول سعيد الأفغاني "إن الاحتجاج الذي هو الاستشهاد، معناه إثبات صحة قاعدة، أو استعمال كلمة أو تركيب بدليل نقلي صح سنده إلى عربي فصيح سليم السليقة".[2] الاستشهاد هو إيراد قول منقول عن عربي فصيح سليم اللسان انطبقت عليه شروط الاحتجاج الزمانية والمكانية التي حددها العلماء للاستدلال به على قضية لغوية.

وقد ورد ذلك في بعض كتب النحو "أشهد" بكذا، والاستشهاد بهذا البيت،" أو احتجوا بكذا...." وهذا كله يخلص إلى أن كل كلام عربي فصيح موثق صح أن يستشهد به على وضع قاعدة لغوية. ومعظم العلماء القدامى استخدموا كلمة احتجاج أو حجة، بدلا من كلمة شاهد أو استشهاد ومثال ذلك ما اعتمده النحاس في شرح أبيات سيبويه؛ إذ يقول: "هذه حجة من قال حسن

الوجه"[3]. وكذلك ابن فارس؛ إذ يقول: "والدليل على صحة ما نذهب إليه من التوقيف إجماع العلماء على الاحتجاج بلغة القوم فيما يختلفون فيه، أو يتفقون عليه، ثم احتجاجهم بأشعارهم، ولو كانت اللغة مواضعة أو اصطلاحا، لم يكن أولئك في لاحتجاج بهم أولى منا في الاحتجاج"[4].

غير أن الظهور اللفظي لكلمة الاستشهاد كان بعد القرن التاسع الهجري في كتب النحاة، فهذا عبد القادر البغدادي في كتابه خزانة الأدب استخدم هذا المصطلح للدلالة على فصاحة العربي أو هجنته، فيقال عنه مثلا "يحتج به كما في كتاب الأغاني للأصفهاني و كتاب الموشح للمزرباني.لذلك فمعنى الاستشهاد والاحتجاج واحد عند علماء اللغة، وهو الإتيان بالحجة أو الشاهد لإثبات صحة قاعدة بناءً على ما استنبطوه من كلام العرب.

مصادر الاستشهاد اللغوي: اعتمد النحاة العرب على الشواهد الشعرية في وضع القواعد النحوية أكثر من اعتمادهم على الشواهد الأخرى المتمثلة في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، والأقوال والخطب والوصايا التي نسبت إلى فصحاء العرب. ولعل السبب الذي أرجعه العلماء لذلك هو تحرز النحاة من الاستشهاد بالقرآن الكريم مهابةً وإجلالاً ، وكذا اعتقادهم أن الشعر أسبق لحافظة الإنسان من النثر ، فروايته أدق وتذكره أيسر .[5]

القرآن الكريم: لم يستشهد معظم النحاة بالقرآن الكريم، وإن استشهدوا به فذلك كان على سبيل التأكيد على القاعدة النحوية التي توصلوا إليها[6]، هذا بالرغم من أن القرآن الكريم يعد سيد المصادر في الاحتجاج، فكل ما ورد من أنه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كانت القراءة متواترة أو شاذة ، وقد أُحتج بالقراءات الشاذة التي لم تخالف قياسا معروفا، والتي خالفته أُحتج بها في ذلك الموضع بعينه و لا يقاس عليه[7].

وبما أنه لا يختلف اثنان في أن كلام ربنا عز وجل أفصح كلام وأبلغه على الإطلاق فوجب الاستشهاد بمتواتره و شاذه، غير أن ما نذكره لا نجد أن كتب النحو قد اعتمدت عليه في تطبيقاتها العملية للشواهد النحوية، ولعل أبرز مثال على ذلك كتاب سيبويه الذي اعتمد فيه على الشعر القديم في معظم شواهده دون القرآن الكريم. وقد تبعه في ذلك معظم النحاة عدا ابن مالك وابن هشام، غير أن سبب ذلك عند بعض العلماء هو التحرز الديني وحرج العلماء أمام القراءات لأن الدارس اللغوي يحمل في تفكيره تعدد الآراء وإعمال الذهن في النص اللغوي؛ غير أن ذلك لا يمكنه أن يكون في النص القرآني؛ لأن النحوي ليس له أن يتصرف فيه ولا أن يتأوله حفاظا عل قدسية القرآن الكريم الدينية. غير أن ذلك لم يكن مقنعا عند بعض العلماء، فهذا ابن حزم يقول:

"والعجب من أن من وجد لأعرابي جلف، ولامرئ القيس أو الشماخ لفظا في الشعر أو النثر جعله في اللغة واحتج به وقطع به على خصمه، ولا يستشهد بكلام خالق اللغات.[8] وهذا ما جعل بعض العلماء يؤكد على أن العربية قد حرمت من زاد لغوي وافر من التراكيب، والتعابير، لو استشهد النحاة بالقرآن الكريم. وهذا ما يرى به الأستاذ محمد غالب إذ يقول: "إن الذي يجب فعله هو جعل القرآن أساسا أصيلا لانتزاع الشواهد والمثل، وهذا يعني أن تتغير خارطة الشواهد النحوية، فتكون الشواهد القرآنية هي الأكثر، ولن يتم هذا إلا باستعراض قواعد النحو كلها، ثم عرضها على القرآن الكريم فما وافقه في أسلوبه أبقيناه، وما خالفه التمسنا معالجته من الآثار الأدبية الرفيعة من شعر أو نثر[9].

وبما أن القرآن الكريم قد نزل بلغة العرب، ومحفوظ من فوق سبع سماوات لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾. فهذا يعد حفظا للغة العربية، فوجب علينا أن نستشهد به، و نعتمد عليه كباقي الشواهد الأخرى من شعرية ونثرية تقعيدا أو توكيدا .

الحديث الشريف: رغم أن أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم)كانت موثقة في عصر الاستشهاد باللغة إلا أن النحاة صرفوا أنفسهم عن الاستشهاد بها كما حدث مع القرآن الكريم،فكتاب سيبويه مثلا لم يستشهد سوى بحديث واحد وأورده على سبيل التوكيد لغيره من النصوص لا للاحتجاج به.

وقد انقسم النحاة في الاحتجاج بالحديث الشريف إلى ثلاثة أقسام:

1/ فريق منع الاستشهاد بالحديث: وتزعَّم هذا الاتجاه أبو حيان النحوي، والحسن ابن الصائغ، والسيوطي في كتابه الاقتراح.[10]

2/ فريق التوسط بين المنع والجواز: وتزعم هذا الرأي الإمام أبو الحسن الشاطبي في شرح الألفية، وذكر ذلك البغدادي في خزانته "فأصحاب هذا القسم يحتجون بالأحاديث القصيرة التي اعتنى بنقلها بلفظها ولا يحتجون بالأحاديث الطويلة التي لا يستطاع حفظها والأحاديث غريبة الألفاظ.[11] غير أن الملاحظ لهذا المقياس الذي اعتمدته هذه الطائفة أنه غير مؤسس على دليل مقنع إذ أن بعض أحاديث النبي (صلى الله عليه وسلم) قد تكون ضعيفة والعكس، و كان ينبغي عليهم أن يعتمدوا الأحاديث الصحيحة ، بصرف النظر عن الطول والقصر.

3. فريق جواز الاستشهاد بالحديث: وتزعم هذا الرأي ابن مالك ثم ابن هشام و البدر الدماميني في شرحه "التسهيل" معتمدين على الأحاديث الشريفة أثناء تقعيدهم القواعد النحوية. وحتى وإن

كان رواته غير عرب غير أنهم أتقنوا العربية واكتسبوا ملكتها لمخالطتهم العرب الخلص، ولعل أبرزهم سيبويه ونفطويه رغم أنهم من غير العرب.

النثر: من المعلوم أن النثر هو الشق الثاني للأدب ، ومن المعلوم أيضا تعدد فنونه فهو يشمل أقوال العرب، وأمثالهم، وحكمهم، وخطبهم ووصاياهم، ويعد من روافد الاستشهاد النحوي؛ غير أنه قليل الاعتماد عليه إذا قيس بالشعر، ولعل من أسباب ذلك قلة النثر الفصيح و كثرة الشعر، وكذا نظرة الناس إلى الشعراء أنهم لا يصدر عنهم خطأ أو لحن.[12] وقد استشهد النحاة بالأمثال، وتذكر دون تغيير في لفظها رغم احتمال تسرب اللحن إليها، وكذا اعتمدوا كثيرا على لغة التخاطب خاصة عند كبار النحاة، وأبرزهم سيبويه في كتابه، وجعل النحاة ذلك حجة في كتبهم. ومما لا شك فيه أن النثر العربي أقرب إلى تصور واقع اللغة لأنه يمثل أسلوب العامة في استعمال اللغة دون ضرورات أو قيود تُفرض على القائل كما هو الحال في الشعر. والنثر كما هو معروف يقسم إلى قسمين:

- الأول: هو النثر الفني ويشمل الخطب والرسائل والحكم والأمثال.
- الثاني: النثر العادي.

أولا: النثر الفني: أ- **الخطب:** اشتهر العرب بالخطابة؛ حيث كانت الوسيلة الإعلامية الأولى عندهم فكان شيخ القبيلة أو القائم بشؤونها يصعد منبره ويرتقي مكانا بارزا ويلقي خطبته على الملأ، فيوصل ما أراده بهذه الطريقة المباشرة. وقد اشتهر الكثير من الخطباء بالفصاحة والبلاغة وحسن الأداء؛ حتى ضرب فيهم المثل كقس بن ساعدة، والنبي صلى الله عليه وسلم ..... وقد اضطلعت الخطابة بدور خطير عند العرب قديما، لما كانت تتميز به من شحذ الهمم، وإعداد النفوس، وترسيخ الأفكار والتأثير في المتلقي بأساليبها المتفردة. ورغم ذلك لم يعد الباحثون إلى تلك الخطب الهامة لإبراز القواعد النحوية والوقوف على أساليب العربية بل تركوها وما فيها من قيمة عظيمة، وثروة لغوية زاخرة، ولم يعتدّوا بها لغويا ونحويا، وقد يكون لهم ما يبرر عدم التعاطي مع النص الخطابي وهو عدم الوثوق به؛ لأن الخطب لم تعلق بالأذهان مثل الشعر، ولم يتوفر للباحثين ذلك الاطمئنان الكامل بأن الخطب تمثل تلك البيئة، وهي لذلك الخطيب دون تغيير أو تحريف، لأن الخطب جمعت في وقت متأخر واعتمد في ضبطها على القاعدة النحوية، ولم تعتمد لتقرير القاعدة النحوية.[13]

ب الرسائل: كانت الرسائل أقل شهرة من الخطب، لكن الكثير منها تم تدوينه خاصة رسائل الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء والقادة من المسلمين؛ غير أنه لم يعتمد عليها في إثبات القواعد النحوية كالنصوص الشعرية.

ج- الحكم والأمثال: استشهد الكثير من اللغويين والنحاة بالأمثال والحكم، ونالت نصيبا من الاستشهاد وذلك لقصرها وسهولة حفظها، رغم أنه قد نالها بعض التجاوز ومخالفة القواعد النحوية. وأحصيت بعض الأمثال مخالفة للاستعمال؛ كالمثل المشهور "أعط القوس باريها"[14]. وقد يكون تسامح النحاة معها كتسامحهم مع الشعر وضروراته.

ثانيا: النثر العادي: اعتمد النحاة على الاستشهاد بلغة الحديث اليومي معتمدين في ذلك على المشافهة من الأعراب، أو السماع عن الرواة الثقات، ويظهر ذلك جليا في كتب النحو، ففي كتاب سيبويه كثير ما نقرأ عبارات: (سمعنا بعض الموثوق بهم)، و(العرب تقول)، و(من ذلك قول العرب)[15] ، وكذا عند الفراء في كتابه "معاني القرآن" بعض العبارات مثل: "سمعت بعض الأعراب" و"العرب تقول".[16] ويظهر لنا بعد هذا كله أن العلماء العرب قد تركوا الكثير من النصوص النثرية ولم يعتدوا بها، رغم صحتها وجودتها، وكان لابد من الاعتماد عليها في تقرير بعض القواعد النحوية، خاصة إذا طابقنا بين لغة الشعر ولغة النثر، ولم نفرض سلطان أسلوب الشعر على أسلوب النثر .

الشعر:لقد كان اعتماد النحاة على الشعر في الاستشهاد واسعا ، لما له من مواقف تميزه عن النثر، هذا بالإضافة إلى أنه محفوظ القبائل من تراثها اللغوي.[17]وهذا ما جعل الشواهد الشعرية هي عماد النحاة في تقعيد قواعدهم، وتم توارث هذه الشواهد جيلا بعد جيل، وقاموا بشرحها و تحليلها وأفردوا لها كتبا مثل: خزانة الأدب البغدادي. وقد كانت هذه الشواهد هي المصدر الأول للاستشهاد، ثم يأتي من بعد ذلك القرآن الكريم وكلام العرب من خطب ونثر وأمثال. وكتب النحو شاهدة على ذلك.[18]

التفسير، مصادره، وأقسامه:

معنى التفسير: التفسير لغـةً: هو البيان والكشف والإظهار، يقال فسرت الشيء، أفسره تفسيراً وفسرتهُ بمعنى أَبَنْتُهُ، والمزيد من الفعلين أكثر في الاستعمال[19]، فالتفسير كشف للمُغْلقِ وإيضاح للمُبْهم.

التفسير اصطلاحاً: قدم العلماء الكثير من التعاريف للتفسير تلتقي في مجملها حول كشف معاني القرآن، وما تحتاج إليه من أحكام أداء ألفاظه، وبيان مدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية. وقد عرفه الزركشي فقال: "واعلم أن التفسير في عرف العلماء كشف معاني القرآن، وبيان المراد منه أعم من أن يكون بحسب اللفظ المشكل و غيره، و بحسب المعنى الظاهر وغيره"[20]. فالتفسير هو محاولة الإنسان فهم كلام الله عز وجل، والبيان عن معانيه وإيضاحها للناس قدر طاقته، وما تسمح به إمكاناته كمخلوق يفسر كلام خالقه، وبإيجاز: التفسير هو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم، من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية[21]

مصادر التفسير: حدد العلماء أربعة مصادر للتفسير[22] وهي :

أ- النقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: و هو في المرتبة الأولى مع وجوب التحرز فيه من الضعيف والموضوع.

ب- الأخذ بقول الصحابي: لأنه بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويعتبر حجة في تفسير آيات الذكر الحكيم، لصلة الصحابة رضوان الله عليهم بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، و كذلك أقوال التابعين في التفسير لأنهم تلقوها عن الصحابة.

ج- الأخذ بمطلق اللغة: وهو وسيلة اللغويين في تفسير القرآن الكريم، و طريقهم في تأويله، وهذا الأساس اعتمد عليه جماعة من علماء القرآن، ونصّ عليه الإمام أحمد في مواضع، مع ضرورة الاحتياط في الإعتماد عليه بصرف الآية عن ظاهرها إلى معانٍ محتملة دون دليل كافٍ من كلام العرب.

د- التفسير بالمقتضى من معنى الكلام، والمقتضب من قوة الشرع: وهذا النوع من التفسير هو الذي دعا به النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما في قوله: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".

أقسام التفسير: روى الإمام الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره".[23]

أ- ما لا يعلمه إلا الله: وهو ما يتصل بأمور الغيب مثل آيات قيام الساعة، وأحوال الآخرة ونحوهما؛ فلا مجال للاجتهاد في تفسيرها، ولا طريق لمعرفته إلا بأحد ثلاثة: إما نص من التنزيل،

أو بيان من النبي صلى الله عليه وسلم، أو إجماع الأمة على تأويله، فإذا لم يرد فيه توقيف من هذه الجهات علمنا أنه مما استأثر الله بعلمه.

ب- ما لا يعذر أحدٌ بجهله: وهو ما يبادر إلى الأفهام من النصوص المتضمنة شرائع الإسلام و دلائل التوحيد، وكل لفظ أفاد معنى جلّياً، يُعلم أنه مراد الله سبحانه و تعالى.

ج- ما تعرفه العرب في كلامها: وهو ما يرجع فيه إلى لسان العرب وأساليبها في الخطاب ومرجعه إلى أمرين : اللغة والإعراب.

د- تفسير العلماء : وهو ما يرجع إلى اجتهاد العلماء ويغلب عليه إطلاق التأويل وهو صرف اللفظ إلى ما يؤوّل إليه ويؤخذ منه بدليل، وهو استنباط الأحكام و بيان المجمل وتخصيص العموم وغيره. وقد جمع بعض العلماء هذه الأقسام في قسمين رئيسين:

1- التفسير بالمأثور: وهو ما جاء في القرآن الكريم أو الحديث الشريف، أو كلام الصحابة بياناً لمراد الله تعالى، ويلحق الصحابة التابعون لأخذهم عنهم. وقد أُلف في هذا التفسير مؤلفات ضخمة كثيرة.

2- التفسير بالرأي والاجتهاد: ويأتي هذا التفسير فيما لم يرد فيه نقل صريح من التفسير الأثري، و طريق التوصل إليه النظر واستعمال الفكر وفق العربية وما يستلزمه أسلوب العربي في كلامه، وجلال القرآن وقدسيته. وقد مهدت كتب "معاني القرآن" لنشأة التفسير بالرأي أو التفسير العقلي[24] كتفسير متكامل يتناول القرآن كله ويتخذ شكلا فنيا. ونحاول أن نفصل في هذا النوع من التفسير لما له علاقة ببحثنا، فالبحوث النحوية كان لها أثر بالغ في نشأة التفسير بالرأي و يؤيد هذا ما نذكره من دلائل[25] على ذلك :

1- أثنى العلماء على تفسير الإمام الطبري واعتبره رجال التفسير أبا التفسير، وشيخ المفسرين لأنه جمع في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) بين النقل والاستنباط على خلاف الكتب المؤلفة قبله، واعتمد على كتب معاني القرآن، وأخذ بآراء النحاة كـ (علي بن حمزة الكسائي)، و(يحي بن زياد الفراء) وغيرهم، وهذا ما ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء[26].

2- تطورت كتب معاني القرآن ومناهجها وأخذت شكل كتب التفسير المتكامل وأكبر دليل على ذلك "معاني الزجاج" و ثناء العلماء عليه، ويقول في ذلك الإمام عبد الحق بن عطية: "ثم إن محمد ابن جرير الطبري – رحمه الله . جمع على الناس أشتات التفسير وقرّب البعيد، وشفى في

الإسناد، ومن المبرزين في المتأخرين أبو إسحاق الزجاج وأبو علي الفارسي، فإن كلامهما منخول"[27].

3- منهج النحويين في معانيهم، إذ هم الذين شقّوا الطريقة للتفسير بالرأي و جرّءوا الناس عليه، كانت هذه الجرأة منضبطة بالقواعد والأصول.

4- تحذير العلماء من تفسير المعتزلة وأضرابهم من الطوائف الإسلامية لأنهم أعملوا العقل في الآيات وأخضعوها لأصولهم، وسمى العلماء تفسيرهم بالتفسير العقلي المذموم، وهو ما سارت كتب المعاني على خلافه ووصلت بالتفسير العقلي إلى شكل جامع ناضج جمع بين النقل والعقل.

5-المنهج اللغوي منهج النحويين هو المنهج العام الذي لا يستغنى عنه؛ إذ هو طريق فهم النص ووسيلة المفسرين؛ لأنه بديل السليقة اللغوية التي كان يتمتع بها المفسرون الأوائل قبل فساد السلائق، وهو الذي أدى إلى نشأة التفسير العقلي الذي أدى إلى النص مباشرة لفهمه، وبيان ما يحمله من وجوه، ويكون مقبولاً بمقدار التزامه بحقائق اللغة وأساليب العرب دون شذوذ.

شروط التفسير بالرأي و مكانة النحو منها : ميّز العلماء بين نوعين من التفسير بالرأي : ممدوح مقبول ومذموم مرفوض، ولهذا جعل بعض العلماء لهذا التفسير شروطا حتى يكون جائزاً بأن يكون المفسِّرُ جامعاً لمجموعة من العلوم وهي :

1-اللغة	2-الاشتقاق	3-الصرف	4-النحو	5-المعاني
6-البيان	7-البديع	8-أصول الفقه	9-أصول الدين	10-علم القراءات
11-الناسخ و المنسوخ	12-الفقه	13-أسباب النزول والقصص القرآني		14-أحاديث التفسير
15-الموهبة، وهو علم يورثه الله لمن عَمِلَ بما عَلِم				

وهذه العلوم الجليلة لكل واحد وظيفته ودوره في التفسير، وإن اختلف العلماء في بعض هذه العلوم المطلوبة في المفسر إلا أنهم يجمعون على اشتراط العلم باللغة العربية وعلومها، لأن التفسير الصحيح لا يكون بدونها، ولا شك أن النحو في مقدمتها، حيث إنّه البديل الأول للسليقة العربية، وسلم الوصول إلى سائر العلوم الأخرى، ومنها بقية علوم العربية.

وقد نقل السيوطي عن أبي طالب الطبري قوله: "وتمام هذه الشرائط أن يكون ممتلئا من عُدة الإعراب، لا يلتبس عليه اختلاف وجوه الكلام فإنه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان، إما حقيقة

أو مجازاً فتأويله تعطيله، وقد رأيت بعضهم يفسر قوله تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ**﴾ الأنعام91. "أنه ملازمة قول الله، و لم يدر الغبي أن هذه جملة حُذف منها الخبر والتقدير الله أنزله ".[28]

وقد أوجب العلماء على المفسر تعلم الإعراب الذي يؤدي اختلافه إلى فساد في المعنى، يتعلمه ليتوصل إلى معرفة العلم الصحيح، كما أوجبوه على القارئ ليسلم من اللحن[29].

التفكير النحوي وتفسير القرآن الكريم: كما ذكرنا سلفا أن النحو أداة لا يستغني عنها مفسر آيات الذكر الحكيم، وهذا ما برز عند الكثير من المفسرين ومناهجهم، والذين عنوا بالنحو ومباحثه في تفاسيرهم، وقد ظهرت فيهم طبقات وفق مراحل زمنية اختلفت من حيث التجديد والابتكار والقوة والضعف، والاجتهاد والتقليد، وقد قسم العلماء مراحل طبقات المفسرين إلى ستة مراحل[30].

مراحلـــــــــــــه:

المرحلة الأولى: يمثل هذه المرحلة نحويون مؤلفو "كتب معاني القرآن" ومؤلفاتهم، ومؤلفوها هم أئمة النحو الأوائل فقد جمعوا بين التفسير وعلم النحو ومباحثه، وهذه المرحلة التي بنى اللاحقون من المفسرين الذين اهتموا بالبحوث النحوية والاحتجاج بالقراءات تفاسيرهم عليها.

المرحلة الثانية: وتتميز هذه المرحلة بأصالة التفكير النحوي و تنمية المرحلة الأولى والبناء عليها والأخذ منها مباشرة، كما تمتاز في مجموع رجالها بأصالة المنهج اللغوي في التفسير، والتطور به إلى مداه على يد خاتمتها الإمام الزمخشري. وتمتاز كذلك أن رجالها من أئمة النحو الذين كانت أقوالهم واجتهاداتهم في ميدان الدراسة النحوية رافدا قويا ومعينا غزيرا للمراحل اللاحقة. وأبرز من يمثل هذه المرحلة:

1. أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة 310 هـ .
2. محمد بن الحسن ابن زياد أبو بكر النقاش المتوفي سنة 351 هـ.
3. علي بن عيسى أبو الحسن الرماني، المتوفي سنة 384 هـ.
4. علي بن أحمد بن محمد بن علي أبو الحسن الواحدي النيسابوري، المتوفي سنة 468 هـ.
5. محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري، المتوفي سنة 538 هـ.

المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة ظهر أئمة كبار في التفسير، تعتبر تفاسير بعضهم موسوعات علمية شاملة لكثير من ألوان المعارف الإسلامية والعربية والعقلية، وليس فيها من يغلب عليه الصبغة النحوية، كما في المرحلة الثانية، غير أن علماءها بارزون في سعة العلم والاجتهاد، ومناقشة الآراء في الدراسة النحوية، ومنهجهم شامل تتنوع فيه المعارف وتأخذ من البحث النحوي

بطرف، وقد أشار الشهاب الخفاجي إلى ذلك فقال: "... ثم استفاض التأليف حتى انتهى للزجاج والرماني ومنهما أخذ الزمخشري، ثم جاء بعدهم من كثّر السواد بأقوال الحكماء والصوفية كالرازي حتى قيل: "في تفسيره كل شيء إلا التفسير "[31]. ولعل أبرز مفسري هذه المرحلة:

1. الإمام أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطي الأندلسي المتوفي سنة 541 هـ .
2. أبو العلي الفضل بن الحسن الطبرسي الشيعي المتوفي سنة 561 هـ.
3. أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي فخر الدين الرازي المتوفي سنة 606 هـ .
4. ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي المتوفي سنة 685 هـ .

وغيرهم.

المرحلة الرابعة: تقوم هذه المرحلة أساسا على الإمام أبي حيّان الأندلسي لما تميز به من مكونات ذاتية، وإمامته في النحو، وكذا منهجه الشامل في البحر المحيط الذي اعتمد فيه على المنهج اللغوي، وعلى حشد أقوال أئمة النحو الكبار، و على الاختيار و الترجيح، و على جمع القراءات جمعاً واسعا، بالإضافة إلى حركة متميزة في ميدان الدراسات النحوية. ولعل أبرز مفسري هذه المرحلة :

1. عماد الدين أبو الحسين بن أبي بكر المالكي النحوي السكندري المتوفي سنة 741 هـ .
2. أثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف أبو حيّان الأندلسي المتوفي سنة 745هـ.
3. تاج الدّين أبو محمد أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي النحوي المتوفي سنة 749 هـ.

المرحلة الخامسة: تتميز هذه المرحلة بالتقليد والجمع والاتباع والاختصار، والدوران على تفاسير السابقين خصوصا تفسير الكشاف و تفسير البيضاوي، وبها بعض أئمة التفسير الكبار ذووا الآراء النحوية و أبرز مفسريها:

1. جلال الدّين أحمد بن محمد المحلّى المتوفي سنة 864 هـ.
2. جلال الدين عبد الرحمان السيوطي المتوفي 911 هـ.
3. أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري المتوفي 875هـ.
4. أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المتوفي سنة 1069 هـ. وغيرهم كثير .

المرحلة السادسة: وهذه المرحلة هي الأخيرة في مراحل النحو والتفسير، وقد ظهرت فيها نزعة إلى التجديد والإحياء لما كان في المرحلة الخامسة، وهي تمثل العصر الحديث، وقد برزت نزعة الفكر العربي والإسلامي، وانقسم المفسرون ونظرتهم إلى النحو إلى صنفين :

1. الدعوة إلى إحياء منهج النحاة القدامى، والأخذ بها بأسلوب مشرق قوي.
2. الدعوة إلى النقد و النفور من ذكر مسائل النحو في التفسير.

مجهودات النحاة في خدمة الكتاب العزيز: قام علماء العربية ونحاتها بمجهودات جبارة في خدمة القرآن الكريم، وكان دافعهم في ذلك إخلاصهم لهذا الكتاب العزيز، وتقربهم إلى الله سبحانه وتعالى بهذه الخدمة التي يتشرف بها كل من ألهمه الله إياها، ويساهم في خدمة اللغة العربية و تيسير فهم القرآن للمسلمين .وقد ظهرت مجهودات علمائنا في ذلك الكم من التآليف اللغوية منها خاصة ما تحدثت عن لغة وتحليل معاني القرآن الكريم، وقد عرفت هذه الكتب بـ "معاني القرآن" مثل: "تفسير معاني القرآن" .... وظهر اتجاه لبعض النحاة بتأليف كتب خاصة بـ "إعراب القرآن" نتجت عن كتب "المعاني" .

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: يعد أبرز آثار الإمام عبد الحق بن عطية، وقد أكد الدكتور عبد الوهاب فايد بأن تسمية الكتاب بالمحرر الوجيز لم تكن من ابن عطية لأن هذه التسمية لم يعرف بها تفسيره في العصور اللاحقة لعصر ابن عطية، وأن المترجمين يذكرون أن له كتابا ضخما في التفسير طار صيته وانتفع به الناس دون أن يذكروا هذا الاسم إلى أن جاء حاجي خليفة (ت 1067) وأطلق عليه في كتابه كشف الظنون اسم "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"[32].

وهذا الرأي لم يسلّم به بعض الباحثين فهذا الدكتور محمد الحسين خليل مليطان ذكر عدة أسباب تؤكد في نظره أن صاحب هذه التسمية هو القاضي عبد الحق بن عطية[33].

وقد بدأ ابن عطية كتابة تفسيره في وقت مبكر من حياته لأن أباه المتوفي (518هـ) كان يوقظه في الليلة مرتين ويأمره أن يضع في تفسيره بعض المعاني التي تجول في خاطره، وهذا دليل على أن ابن عطية بدأ في وضع تفسيره وهو في عنفوان شبابه، وقمة نشاطه إذ كان في حدود الثلاثين من عمره، وقد مكث رحمه الله في تفسيره مدة طويلة، ولقي في ذلك الكثير من المتاعب والمشاق. والباعث على تأليف هذا التفسير هو التقرب إلى الله عز وجل رجاء أن يحرم الله جسده على النار، وهذا يدل على أن هدف ابن عطية في تفسيره هو رضا الله عز وجل.

ولهذه الغاية السامية هيأ ابن عطية لنفسه ما ينبغي أن يتوافر من معارف وعلوم وإمكانات حتى يفسر نصوص الكتاب الحكيم، فأعدّ نفسه لشرف هذه المهمة، علماً واطلاعاً وفضلاً. وقد كان لهذا الإعداد أثره البيّن في براعته اللغوية فضلا كما لذوقه الأدبي المتميز. وظهر ذلك جليا في تحليله العميق للألفاظ ومعرفته باشتقاقاتها، وذكره لأبرز الآراء اللغوية في سياق عرضه للأقوال والتأويلات الواردة في آيات القرآن الكريم التي لم يخرج فيها عن نطاق أقوال العلماء وتأويلاتهم، رغم ما يلاحظ عليه أنه يحاول مرارا الإفلات مما اختطه لنفسه من منهج لغوي ليظهر قدراته وإمكاناته اللغوية فيكثر من الشواهد الشعرية والتحليلات النحوية والصرفية، وكأنها الغرض الأساسي لكتابه، لكنها تظهره عالما راسخا في العلم لما له من إمكانات فائقة، وقدرات متميزة في تفسيره. ولعل أبرز الأسس التي اعتمد عليها الإمام عبد الحق بن عطية في تفسيره المحرر الوجيز ما يلي:

- أ/ الجمع بين المأثور والرأي، فابن عطية يذكر المأثور وهو ما ورد عن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما ورد عن الصحابة والتابعين في تفسير القرآن الكريم، غير أنه عندما يذكر المأثور لا يتقيد بذكر الأسانيد ربما يكون ذلك اختصارا حتى يتماشى مع تفسيره الذي سماه الوجيز.

وبالإضافة إلى المأثور يعتمد ابن عطية على الرأي القائم على الاجتهاد و المبني على أقوال العلماء وقوانين العلوم كالنحو مثلا. ومن التفسير بالمأثور ما ذكره الإمام ابن عطية في تفسير قوله تعالى : ﴿ **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ التوبة 108.

فأورد ابن عطية أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال للأنصار: "يا معشر الأنصار إني رأيت الله أثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون؟ فقالوا يا رسول الله إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء"[34]،[35] والأمثلة على التفسير بالمأثور كثيرة في تفسيره. واعتمد ابن عطية على التفسير بالرأي بذكر الاحتمالات التي يمكن أن تحملها الآية، وذكر أقوال المفسرين، ومثال ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ** ﴾. البقرة 45. فيذكر ابن عطية مجموعة آراءٍ دون تعقيب عليها فيقول: "وقوله تعالى: ﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ**﴾، قال مقاتل: معناه على طلب الآخرة، وقال غيره استعينوا بالصبر على الطاعات وعن الشهوات على نيل رضوان الله، وبالصلاة على نيل رضوان الله، و حطّ الذنوب،...

وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية الصوم ... وقال قوم: الصبر على بابه، والصلاة الدعاء..."[36]. وكان ابن عطية يرجح بعض الآراء عن أخرى و يستدل على ذلك.

- **ب/** اعتماد التفسير على المنهج اللغوي القائم على اللغة والنحو وهذا ما جعل تفسيره قويا في بابه، محكمًا في بنيانه، لقيام تفسيره على أبرز أركان التفسير لكتاب الله عز وجل لأن القرآن عربي فلابد من الرجوع إلى اللغة العربية بألفاظها ومشتقاتها ونحوها وصرفها..... وقد قام منهجه اللغوي على بعض الأسس هي:

1) تتبع مظاهر التركيب اللغوي في الآية الكريمة، فقد قام بتحليل الكثير من الأساليب النحوية كالاستفهام والنداء من ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿ **فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** ﴾ البقرة 223. " و(أنّى) إنما تجيء سؤالا أو إخبارا عن أمر له جهات، فهي أعمُّ في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى) هذا الاستعمال العربي، وقد فسر الناس (أنّى) بهذه الألفاظ، وفسره سيبويه بـ (كيف)[37] ".

2)حشد الكثير من الشواهد اللغوية والشعرية:

الملاحظ لتفسير ابن عطية يرى كثرة الشواهد اللغوية النحوية والشعرية منها خاصة في تبيين معنى لفظة (أوّاه) التي في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾ التوبة 114.

3)إذ يقول :"والتأوه: التفجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بـ (أوه)[38] ثم أورد بعض الأبيات احتجاجا على المعاني التي ذكرها.

قول الشاعر:

فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها ومن بُعد أرض بيننا وسماء

قول المثقب العبدي:

إذا ما قمت أرحلها بليل تأوه آهة الرجل الحزين

والشواهد النحوية الشعرية كثيرة في تفسير ابن عطية، ويمكن الرجوع إلى التفسير لرؤية مواطنها[39] ويمكن أن تستقل بدراسة خاصة.

4)الاحتجاج بالحديث والأمثال على سلامة اللغة: يظهر ابن عطية من خلال تفسيره أنه عالم بالحديث، فهو يميز بين الصحيح والضعيف إذا تعارضا، ويظهر ذلك جليا في تفسيره؛ ومن ذلك ما فعله في مناقشة مسألة هل (بسم الله الرحمن الرحيم) من الفاتحة أم لا؟ فقال بعد أن ساق

حديثين يقتضيان أنها من الفاتحة: "وهذان الحديثان يقتضيان أنها من الحمد، ويرد ذلك حديث أبي كعب الصحيح[40]. وساق حديثا صحيحا يقتضي أنها ليست من الفاتحة، وهذا يدل على الاهتمام بالأسانيد رغم أنه لا يوردها في تفسيره. ومن شواهد الحديث التي أوردها ابن عطية ما جاء في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ** ﴾ الإسراء 35، وقوله: ولا تقف معناه ولا تقل، ولا تتبع، قال القاضي أبو محمد: لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة، ومنه قول النبي . صلى الله عليه وسلم . : "نحن بني النضر لا نقف أُمّنا، ولا ننتفي من أبينا"، وتقول فلان قُفْوتي، وتقول العرب: رُبّ سامع عذرتي ولم يسمع قَفْوتي" أي ما رميت به، وهذا مثل الذي يفشي سره، ويعتذر من ذنب لم يسمعه المعتذر إليه"[41].

1) رأي ابن عطية أن ألفاظ القرآن عربية وإن كان لا يمنع أن تكون قد وردت في القرآن ألفاظ أصلها أعجمي ولكنها انتقلت إلى العرب نتيجة لاختلاطهم بمن جاورهم من العجم، وجرت عندهم مجرى العربي الفصيح، فهذه الألفاظ وإن كانت أعجمية فقد صارت عربية بالاستعمال، وقد وضع ابن عطية لذلك بابا خاصا لذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق.

2) العناية التامة بتتبع معنى الكلمات وشرح مدلولاتها في آيات القرآن الكريم وهذا ما قال به في تفسيره: "وقصدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفر كثير كما في كثير من كتب المفسرين[42].

وقد ظهر هذا المنهج في تفسيره ومن ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ البقرة 30. وقد بين آراء اللغويين في اشتقاق لفظة (الملائكة) ويستشهد بكلامهم في هذا المقام فيقول: "والملائكة واحدها ملك، أصله: ملاك، على وزن (مفعل)، من لاك إذا أرسل وجمعه ملائكة على وزن (مفاعلة)"[43]... ثم يذكر أقوالا أخرى لبعض اللغويين مع الاستشهاد عليها، وغير ذلك كثير في تفسيره.

3) ذكر الوجوه الإعرابية للكلمة مع بيان المذاهب النحوية من بصرية وكوفية وغيرها، من ذلك ما ذكره في تفسير قوله تعالى: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ إذ يذكر ابن عطية مذاهب النحاة من البصريين والكوفيين في إعراب (بسم) فيقول: "والباء في (بسم الله) متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت بسم الله، وعند نحاة الكوفة: بفعل تقديره: ابتدأت بسم الله، فـ(بسم الله) في موضع رفع على مذهب البصريين، وفي موضع نصب على مذهب الكوفيين"[44]. كما أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيبويه أن الباء متعلقة باسم كما تقدم، وبسم الله في موضع نصب تعلقا بثابت أو مستقر، بمنزلة (في الدار) من قولك: "زيد في الدار". وفي بعض المواضع

كان ابن عطية يرجح بعض الآراء النحوية ويرد على بعضها بقوله: وهذا هو الراجح. ويظهر إعجاب ابن عطية بسيبويه ويتأثر بآرائه النحوية وهذا بيّن في ثنايا التفسير. وهكذا كان تفسير ابن عطية يسير مع اللغة العربية في كل شيء، فلا يتجاوز قواعدها، ولا يتخطى حدودها، وهذا ما زاد من قوته ومكانته، لأنه يعتمد على أسس قوية من قواعد اللغة والنحو، وتلك من أقوى اللبنات في بناء صرح التفسير.

أمثلة من الشواهد النحوية في تفسير المحرر الوجيز

الجملـة الاسميـة: المبتـــــــــــدأ:

1- العامل في المبتدأ: من المعلوم أن المبتدأ هو الاسم المرفوع الذي تبتدئ به الجملة الاسمية، غير أن عامل رفعه هو ما كان محل خلاف بين النحاة، خاصة بين المدرستين البصرية والكوفية. فالبصريون يرون أن عامل رفعه معنوي وهو الابتداء، وهذا ما قال به الجمهور، أما الكوفيون فيرون أن المبتدأ و الخبر مترافعان، فالمبتدأ مرفوع بالخبر والخبر مرفوع بالمبتدأ[45]. وهذا ما ذهب إليه الكثير من النحاة المتأخرين. وقد أخذ ابن عطية بمذهب البصريين، من أن المبتدأ مرفوع بالابتداء، وذلك في قوله تعالى: ﴿**فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ البقرة 64. ﴿ **فَضْلُ اللَّهِ** ﴾ رفع بالابتداء، والخبر مضمر عند سيبويه لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه تقديره: فلولا فضل الله عليكم تداركك[46]. وهذا موجود في مواضع كثيرة من تفسيره . غير أن حجج الكوفيين تظهر أقوى، خاصة فيما يتعلق بالتعري من العوامل اللفظية بأن لا يكون هذا عاملا في رفع المبتدأ و الخبر، و بأنه يمكن أن يكون الاسم عاملا ومعمولا في نفس الوقت، وهذا ما يؤكد رأيهم في أن المبتدأ و الخبر مترافعان، فكلاهما يعمل في الآخر. ومثال ذللك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ **أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى** ﴾ الإسراء 110. فـ (**أَيًّا**) منصوب بـ **(تَدْعُوا)**، و**(تَدْعُوا)** مجزومٌ بـ (**أَيًّا**).

الخـــــبر: 1- أنواع الخبر: الخبر هو الجزء المتم الفائدة مع المبتدأ[47] ، وهذا التعريف يبين أن حصول الفائدة أساس الإخبار. ويأتي الخبر إمّا مفرداً أو جملةً أو شبه جملة. ففي قوله تعالى ﴿ **ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ** ﴾ هود 103، يرى ابن عطية أنه يصح أن يكون النّاس رفعاً بالابتداء، ومجموعٌ خبر مقدم[48]، غير أن هذا التخريج مجانبٌ للصواب، لأن القياس يقتضي أن يكون الخبر على إعرابه . مجموعون . ومطّرد مع قاعدة الخبر المشتق أن يكون الناس مرفوعاً بمجموع.

الفعل اللازم والفعل المتعدي: من الأنواع التي ينقسم إليها الفعل: اللازم والمتعدي.

أ- **الفعل اللازم:** وهو ما اكتفى بمرفوعه و لم يطلب مفعولا به؛مثل: أتاك الربيع الطلق.

ب- **الفعل المتعدي** : وهو ما لا يكتفي بمرفوعه و يطلب مفعولا به واحد أو أكثر؛مثل : نشر الطاووس جناحه. والدارس لتفسير ابن عطية يرى أنه استعمل مصطلح (واقف) للفعل اللازم ومصطلح (مجاوز) للفعل المتعدي، و لعل هذين المصطلحين فيهما من الدقة ما يجعلهما يتلاءمان مع حقيقة الفعلين اللازم والمتعدي، فإطلاق ابن عطية مصطلح "الواقف" على "اللازم" أي أن هذا الفعل يقف عند الفاعل ولا يطلب مفعولا به، وباصطلاحه (المجاوز) أي أن الفعل يتجاوز الفاعل إلى طلب المفعول به، وقد أورد ذلك ابن عطية مثلا في كلامه عن الفعل "صدّ"، "فعل يستعمل واقفا ومتجاوزا أي أنه فعل يقف ويتعدى بلفظ واحد تقول صددت عن كذا، وصددت غيري عنه[49]؛ ولعل هذا الاصطلاح الذي قدمه ابن عطية للفعل اللازم والمتعدي غير ثابت، فقد عبّر عنه في الكثير من المواضع بمصطلح الفعل المتعدي وغير المتعدي، ففي تفسير قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ**﴾ الأنعام 27. وقُفوا معناه حُبسوا ، ولفظ هذا الفعل متعد وغير متعد سواء ، تقول وقفت أنا، و وقّفت غيري[50].

ويرى ابن عطية جواز أن تقع الجملة مفعولا للفعل المتعدي إلى مفعول واحد، كما في تفسيره لقوله تعالى ﴿**نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ**﴾ الأنعام 99. فقوله تعالى ﴿ **وَمِنَ النَّخْلِ** ﴾ تقديره ونخرج من النخل ، ﴿ **مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ** ﴾ ابتداء خبره مقدم، والجملة في موضع المفعول بـ نُخرج[51]. غير أن ما يراه ابن عطية، يرى النحاة أنه غير صائب لأن الفعل المتعدي إلى مفعول واحد لا تقع الجملة مفعولا به إلا إذا كان الفعل مما يعلق، وكان في الجملة مانع من أن يعمل في شيء من مفرداتها[52] . ومن المعلوم أن الفعل المتعدي ينصب مفعولا دون الحاجة إلى حرف جر، غير أن بعض النحاة حكموا على بعض المفاعيل أنها منصوبة بإسقاط حرف الجر كما فسر ابن عطية قوله تعالى ﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا**﴾ الأعراف 155 . بقوله: "معنى هذه الآية أن موسى اختار من قومه هذه العدة... وتقدير الكلام واختار موسى من قومه، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنُصِب، وهذا كثير في كلام العرب[53]. وأكد ابن عطية على ذلك في عدة مواضع كما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿**وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾ الفتح 2. بقوله "معناه إلى صراط مستقيم، فحذف الجار فتعدى الفعل، وقد يتعدى هذا بغير حرف جر ".[54] وبعض النحاة يرى أن الفعل إذا استعمل متعديا بنفسه تارة، وبحرف جر تارة أخرى، قيل فيه أنه متعد بوجهين، ولم يحكم بتقدير الفعل عند سقوطه ولا بزيادته عند ثبوته.[55]

ومما يعمل عمل الفعل المتعدي عند النحاة فعل القول فتحكى الجمل بعده على أنها مفعولة له[56]. ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير ابن عطية كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ**﴾ المائدة 119. وهذا ما يرى به ابن عطية إذ يقول: والمبتدأ أو الخبر في موضع نصب، بأنه مفعول القول إذ القول يعمل في الجمل[57].

المنصـــــوبات: المفعـــول بـه : الجملة الفعلية هي كل جملة تبتدئ بفعل يأتي بعده فاعل ويتأخر المفعول به، هذا هو الترتيب المنطقي الأساسي في اللغة. غير أنه لم يعتمد في سياقات كثيرة من كلام العرب فتارة يتقدم المفعول به عن الفعل والفاعل كما في قوله تعالى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ الفاتحة 5. وتارة يتقدم المفعول عن الفاعل كما في قوله ﴿**أَلْهاكُم التكاثر**﴾التكاثر 01. غير أن هذا التقديم والتأخير لعناصر الجملة الفعلية منه ما سببه نحوي تركيبي، ومنه ما يكون لأغراض بلاغية أو هما معاً، وقد ركّز ابن عطية على الجانب الثاني وهو ما تعلق بالمعنى، ففي تفسير قوله تعالى ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾ الفاتحة 5. يرى ابن عطية أن سبب التقديم هو الاهتمام بالمقدم، فقُدم المفعول "على الفعل اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم، ويذكر أن أعرابيا سب آخر، فأعرض المسبوب عنه، فقال السابُ إياك أعني، فقال الأخر وعنك أُعرض، فقدما الأهم"[58]. غير أن تعليل بعض النحاة لتقديم المفعول به في هذه الآية لأنه ضمير منفصل لو تأخر وجب اتصاله[59].

الهوامش:

1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 2000م، مادة (شَهد)،ج 8/ص 154.

2) سعيد الأفغاني، في أصول النحو، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، 1414 هـ، 1994م، ص70، 75.

3) النحاس ، شرح أبيات سيبويه، ت: زهير غازي زاهد، مطبعة الغرى الحديثة –النجف– العراق،1974م، ص 62.

4) ابن فارس ،الصاحبي في فقه اللغة، مطبعة المؤيد، القاهرة ،1910، ص 6.

5) محمد غالب وراق، مباحث في مشكلات النحو العربي وسبل علاجها، السودان، ط2003،ص80.

6) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر)، تح:علي عبد الواحد وافي، مطبعة القاهرة ،1957–1962،ج2/949.

7) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ،الاقتراح في أصول علم النحو ، ط دلهي الهند ،1312هـ ، ص14.

8) ابن حزم الظاهري ،الإحكام في أصول الأحكام، مطبعة السعادة القاهرة ،1345هـ ،ج4/306.

9) ينظر: محمد غالب وراق، مباحث في مشكلات النحو العربي وسبل علاجها، ص 81.

10) ينظر: محمد عيد، الرواية والاستشهاد، ص 125–136.

11) ينظر: المصدر نفسه، ص125–136.

12) ينظر: أحمد عبد الستار الجواري، نحو التيسير(دراسة ونقد منهجي)،مطبعة المجمع العلمي العراقي ،1984،ص50.

13) ينظر: محمد عيادة، عصور الاحتجاج، دار المعارف، 1980م، 1/171.

14) المصدر السابق،1/172.

15) سيبويه، الكتاب، تح : عبد السلام محمد هارون، ط3 ، 1/ 179 .

16) الفراء، معاني القرآن، عالم الكتب، ط1989، 3/ 174 .

17) ينظر: محمد عيد، الرواية والاستشهاد ، ص129–130.

18) محمد غالب وراق، الخصومة بين النحاة والشعراء أسبابها وصورها، جدة، ط 1999، ص26.

19) ابن منظور، اللسان (فَسَرَ) 6/ 361.

20) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1972، 146/2.

21) ينظر: محمد عبد العظيم الزرقاوي،مناهل العرفان في علوم القران،تح: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر، بيروت، ط 1996،ص471.

22) ينظر: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 156/2-161، و جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 4/ 180-182.

23) ابن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن ، ط دار المعارف، 75/1، 76.

24) عبد الوهاب رفيده،النحو وكتب التفسير،دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، ط3، 1399هـ، 1990م،547/1 وما بعدها.

25) ينظر: المصدر السابق، 547/1 وما بعدها.

26) أبو عبد الله ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1979م، 64/18.

27) عبد الحق ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 1/ 49.

28) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، 4/ 175.

29) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، 2/ 165، السيوطي، الاتقان في علوم القرآن ، 4/ 189.

30) عبد الوهاب رفيده، النحو و كتب التفسير، 1/ 563 و ما بعدها.

31) شهاب الدين الخفاجي، حاشية عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، الناشر: الطبعة الخديوية، 1283هـ، دار صادر، بيروت، 1/ 16، وينظر النحو وكتب التفسير، 565/1.

32) د. عبد الوهاب فايد، منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم، 1/ 81-82.، وكشف الظنون لحاجي خليفة 1613/2.

33) ينظر: محمد الحسين مليطان، الدرس النحوي في تفسير ابن عطية، 13-14.

34) أخرجه الترمذي في التفسير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في الثمر المستطاب في فقه السنة و الكتاب 540/1.

35) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 94/3.

36) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 299/1.

37) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 299/1.

38) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 103/3.

39) ينظر عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز: 461/3، 507/3، 189/4، 235/5، وغيرها كثير.

40) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 60/1.

41) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 455/3.

42) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 1/1.

43) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 1/1.

44) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 2/1

45) أبو البركات الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1433هـ ، 2012م، 39/1.

46) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 152/1.

47) ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1424، 2003م،201/1.

48) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 206/3.

49) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، 494/1.

50) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز ، 81/2.

51) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، 374/2.

52) ينظر: أبو حيان ، ارتشاف الضرب، 189/4-190.

53) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 522/2.

54) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز 141/4.

55) ينظر: ابن مالك، شرح التسهيل، تح: عبد الرحمان السيد و محمد بدوي المختون، دار هجر، القاهر، ط1، 1990، 149/2.

56) الرضي، شرح الرضي على الكافية، 175/4.

57) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، 301/2.

58) عبد الحق بن عطية، المحرر الوجيز، 72/1.

59) أبو حيان، ارتشاف الضرب، 1469/3. ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك، 493/1.